أنفاس

ANFASSE.ORG

كانط بين التربية و التنوير.

بقلم: سمير بوسلهام.

طالب باحث، جامعة عبد المالك السعدي تطوان.

(قسم النشر: فلسفة و تربية.)

" إن الأنوارتتوقف على التربية، كما أن التربية تتوقف بدورها على الأنوار" (كانط، محاضرات في التربية 1776)

تجدر الاشارة في البداية إلى كون النص موضوع الاشتغال" تأملات في التربية" لكانط، ليس بعمل اعده صاحبه على وجه متسق و متكامل، كما هو الشان بالنسبة لمجمل اعماله المنشورة في حياته، بل إن هذه التأملات هي جماع محاضرات ألقاها كانط في جامعة كونسبرغ الألمانية مابين 1776-1787 في فترات متقطعة، و قد سلمها لتلميذه رينك RINK في نهاية مشواره المهني، موصيا إياه بنشر ما يناسب الجمهور منها آنداك. لينشرها رينك سنة 1803 ،أي قبيل وفاة كانط بسنة تقريبا. وهو ما قد يدل على أن كانط لم يقف على نشر هذه النصوص شخصيا، إذ يبدوا واضحا للقارئ مدى عدم انسجام فقراتها و كذلك التكرار الذي يرد فيها للكثير من الأفكار و الفقرات.

وقد يبدوا جليا أن كانط عندما بدأ محاضراته "حول التربية" سنة 1776، كان اطلع بإمعان على عمل روسو " إميل أو في التربية" الذي نجد كانط في هذه المحاضرات يستحضره في كثير من الأحيان، أضف إلى ذلك أن اهتمام كانط بالتربية لم يكن اهتمام رجل فكر منظر وفقط ، بل هو اهتمام ممارس للتربية ،إذ زاول مهنة المعلم و المربي الخاص في البيوت لمدة 9 سنوات (1746-1755)، في هذه الفترة بالذات استطاع أن يبلور رؤية نقدية لما كانت تشهده ألمانيا في القرن 18 من أشكال التربية السائدة في الوسط الأسري و داخل

anfasse.org

المؤسسات التعليمية و الدينية ، و للخطورة التي لاحظ كانط أنها تهدد مستقبل الانسانية لما للتربية من دور اساسي في تنشئة الاجيال، و هو ما سيجعل كانط ينكب على كتابة مذكراته التي ستكون أساس المحاضرات التي سيلقيها في الجامعة كونسبرغ، لذلك نعتبر ان هذا العمل (بالرغم من عدم اتساقه) له من الأهمية الكبرى ما يجعله لبنة من لبنات مشروع كانط الأنواري و النقدي، و هو ما سنحاول إبرازه في هذه القراءة " السريعة" لنصوص " تأملات في التربية" محاولين أن نستشف اهم القضايا التي يقف عندها كانط حول التربية: التعليم، الأخلاق، التربية و الشأن السياسي، الدين، الجنس...

1-التربية خاصية إنسانية:

في مطلع مذكرات كانط حول التربية نجده يقول: **" الانسان هو المخلوق الوحيد الذي يجب تربيته... و أقصد بفعل التربية الرعاية، التغذية و التعهد بالانضباط و التعليم المقترن بالتكوين و من هذه الزوايا الثلاث يكون الانسان: رضيعا و تلميذا و طالبا"**[1]، من خلال هذا التحديد الأولي للتربية، نلمس تقسيم كانط عملية التربية لدى الانسان إلى مستويين، جسدي مادي و آخر معرفي عقلي، و هذا التقسيم رهين بتوفير وضع صحي ملائم للطفل منذ بداية تشكل بنيته الجسمية بشكل سليم (الرعاية الصحية)، و العمل على صقل استعدادته العقلية والمعرفية بالتعليم. و يرى كانط أن انفراد الانسان بخاصية التربية، ليس مجرد مسألة اختيارية بل هي صفة مرتبطة به كضرورة، و يتساءل في هذا الصدد : " هل يمكن الحديث عن إنسانية الانسان لو جرد من التربية"، و هو ما يعني ان التربية هي ما يكسب الانسان إنسانيته و يظهر ذلك جليا عندما يقارن كانط بين الانسان (éduqué) و الحيوان (المتوحش) في ما يخص نمط العيش، فالحيوانات عند ولادتها لا تحتاج إلى التربية حتى تعرف ما جدر بها القيام به من اجل البقاء (جلب الطعام، الهروب من الخطر، صيانة المسكن، طرح الفظلات خارج العش...)، بينما الانسان عند ميلاده يكون واجبا على أبويه ان يوفرى له شروط العيش الانساني و إلا فسيبقى متوحشا**"فالانسان لا يكون إنسانا إلا بالتربية".**

2- الطفل و رهانات التربية:

[1] كانط، ثلاث نصوص:تأملات في التربية، ترجمة محمود بين جماعة، دار محمد علي للنشر ، الطبعة الأولى 2005. تونس، الصفحة 11.

anfasse.org

إن أول ما يراهن عليه كانط في مشروعه للتربية هو تجريد الانسان من حيوانيته وتجنيبه الانغماس في الوحشية، و يرى أنه لا يمكن بلوغ هذا الهدف إلا بالقسر، لذلك تكون أول مراحل التربية لدى الانسان هي مرحلة تلقين الطفل" الانضباط "، و هي ذات طبيعة سالبة négative إذ تقوم على المنع و الضبط و يصفها كذلك بـ"الآلية". يرى كانط أن الانضباط رهين بتعويد الطفل في سن مبكرة على الامتثال للقوانين و الضوابط الاجتماعية والأخلاقية الكفيلة بتأطير حياة الفرد الحضارية و المنسجمة مع غايات الفضيلة الإنسانية، ولكن هذه الخطوة تشوبها بعض الصعوبات و المفارقات، و التي يثيرها كانط نفسه عندما يستذكر أن الإنسان ينزع نحو الحرية بطبعه و بذلك يكون متمردا على كل أشكال الضبط والقسر، و هو مستعد للتضحية من اجل حريته، و عليه يكون من واجب المربين و الآباء الوقوف على تلقين "الانضباط " لأطفالهم و تعويدهم عليه منذ نعومة أضافرهم و إلا فسيخرجون عن السيطرة و ينزعون نحو الفوضية و التمرد و الوحشية، و كذلك يجب أن نبين له فيما بعد أن القسر و الضبط الذي يخضع له هو لمصلحته و من أجل غاية فاضلة تكمن في تلقينه كيفية استعمال حريته مستقبلا و تنمية استعدادته الأخلاقية. و يشير كانط إلى انه لا يمكن تدارك التربية لدى الشعوب التي لم تتعود الانضباط (المتوحشة) لدى فالتربية هي ميزة الشعوب المثقفة و المتحضرة بالأساس. و يقول كانط **:" من لم يثقف يظل فضا، ومن لم يتعلم الانضباط يظل متوحشا، إن غياب الانضباط شر أعظم من غياب الثقافة ، لأن هذا الغياب يمكن تداركه فيما بعد"**[2] .

من الرهانات التي يضعها كذلك كانط أمام مشروعه للتربية، تقدم الإنسانية و رقيها نحو الكمال، و في هذا الصدد يضع كانط في مسؤولية كل الاجيال تلقين التربية للجيل الذي قبله على أحسن الأوجه، و هكذا سيكون بوسع كل جيل أن يكون أحسن من الجيل الذي الأول، وذلك بخطوة أكثر تقدما، لذى فالكفيل بتربية الناس هم اناس تلقوا التربية من قبل، **" و هذا، يقول كانط، ما يفتح أفقا على نوع بشري مقبل على ان يكون أكثر سعادة"**[3]. و لعل هذه الفكرة هي ما سيجعل تصور كانط للتربية تصورا يتجاوز الطروحات التقليدية للفعل التربوي بما فيها تصور جون جاك روسو (إميل أو في التربية)، بحيث لا يعدو أن يكون التصور

---

[2] المصدر نفسه، ص 15.
[3] المصدر نفسه، ص15.

anfasse.org

التقليدي إلا تصورا براغماتيا باعتباره يروم من التربية مجرد التكيف مع العصر و تكوين أناس يسايرون شروط الراهن، و هو ما رأى فيه كانط نظرة محدودة للتربية، فيرى أن على التربية أن تتوجه لخدمة غاية الكمال الإنساني، و هو ما يجعل "تأملات ديكارت في التربية" لبنة من لبنات بناء المشروع الأنواري و كذلك مشروع السلم الدائم الذي لا يمكن تحقيقه إلا بتكوين إنسان مستنير بحق، و التربية لدى كانط من هذا المنطلق، تكون في خدمة النزعة الإنسانية التي لا تنفصل عن فلسفته الاخلاقية. و هو ما سيجعله يدعو إلى تأسيس "علم تربية" (البيداغوجيا) قائم على النظر و التفكير لتطوير الاستعدادات الانسانية اتجاه الكمال. إن مشروع تربية يروم غاية كمال الإنسانية لا يمكن ان يتأتى إلا **" بالعمل على توريث الأجيال القادمة تعليمات تستطيع تحقيقها بالتدريج بغية الوصول نحو الكمال الانساني"**[4].

و "البيداغوجيا" بهذا المعنى يجب أن توجه نحو مخطط للتربية يتخذ بعدا كونيا و عالميا، ومبني على أساسين:

- آلي سالب: و هو المتمثل في "الضبط" و تلقين الطفل الانضباط و الامتثال للمبادئ والقوانين بشكل مباشر و آلي، و تقوم بواسطة المنع و تجنيب الطفل من السقوط في الأخطاء و النزوات أي تجنيبه النزوع نحو الوحشية و هو ما يمثل أول مراحل التربية. و يعطي كانط كمثال على ذلك: أن أخذ الطفل إلى المدرسة في السنة الأولى لا يكون بغرض تلقينه المعارف ولكن الغرض منه هو تعويده الجلوس و الانضباط داخل القسم والامتثال للأستاذ، و هي خطوة آلية سالبة، تهيئ الطفل للمرحلة التالية الموجبة(التلقين، و التعليم).
- أخلاقي موجب: و هي موجبة لكونها المرحلة التي يأتي فيها دور تعليم الطفل و تلقينه المهارات و تنمية الاستعدادات (القراءة، الكتابة، الموسيقى...) و تلقين المبادئ الأخلاقية.

و يمكن أن نضع كخطاطة لمجمل الأهداف التي يجب أن ترومها التربية حسب كانط كما يلي:

---

[4] المصدر نفسه، ص 15.

anfasse.org

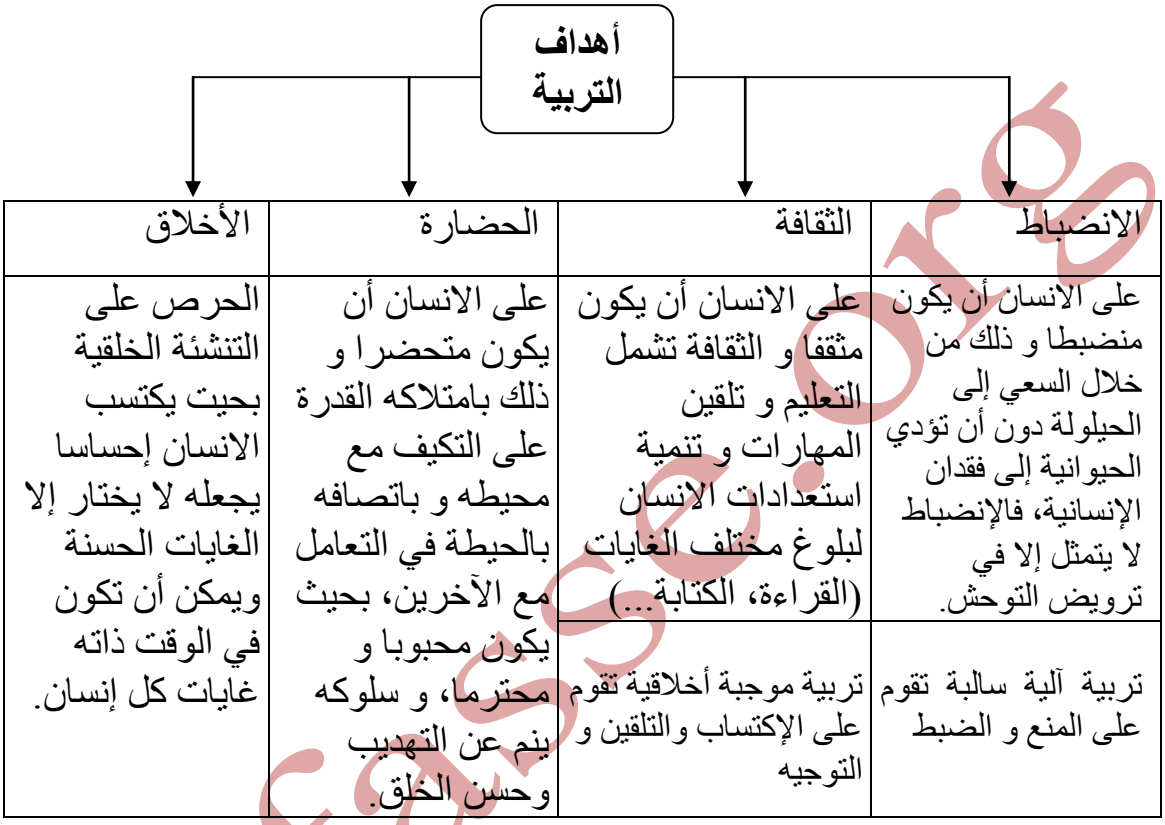

3- التربية و الشأن السياسي:

يثير كانط مسألة علاقة التربية بالشأن السياسي في الدولة من خلال طرحه للسؤال: **"هل ينبغي التماس حالة أفضل للعالم من الامراء أم من الرعية ؟"** بمعنى هل يجب توكيل المسألة التربوية للدولة و للمؤسسات الحاكمة ؟ يجيب كانط بأنه لا يمكن التعويل على الحكام في الاتيان بالأفضل للبشرية إلا إذا كانوا قد تلقوا نضاما من التربية يحترم غاية كمال الإنسانية، و عليه يجب أولا أن يتلقى الحكام منذ صغر سنهم التربية على يد الرعية و ليس من امثالهم، **" فليس بمقدورنا أن نامل في ان ياتي الخير من فوق إلا إذا كانت التربية فوق**

anfasse.org

هي الفضلى"[5]. و بالرغم من ان كانط ترك المجال مفتوحا أمام الحكام بالتكفل بالشأن التروي شريطة أن يكون قد تلقوا تربية مثلى، فذلك ليس بأسلوب استنكاري و هو ما يعني رفض كانط الجازم لأن تكون التربية في يد الحكام، باعتبارهم لا يتوجهون في مخططاتهم التربوية إلا إلى استأثار مصالحهم السياسية أكثر مما يهتمون بصلاح الانسانية، و في نظره **" إن التجربة تعلمنا أن الامراء من أجل بلوغ غاياتهم، ينظرون إلى الخير الكلي أقل مما ينظرون إلى خير دولتهم، فما أن يعطوا مالا لهذا الغرض حتى يستأثروا عندئذ بحق إملاء المخطط في التربية. وكذلك الشأن بالنسبة إلى كل ما يتعلق بثقافة الذهن البشري و انتشار المعارف الإنسانية. فالسلطان و المال لا يوفرانها، بل ييسرانها على أبعد تقدير"**[6]. يبين هذا النص أن التربية لدى كانط تأخذ مكانة جد حساسة و كذلك أهمية قصوى تستوجب التصدي لكل ما يمكن أن يفسد مسارها بما في ذلك القوى السياسية الحاكمة، و لهذا يدعوا كانط إلى أن تكون التربية من اختصاص أناس خبراء مستنيرين أكثر من غيرهم، و يحملون هم بلوغ الانسانية كمالها و سعادتها و يقول في هذا الصدد" **إن الطبيعة الانسانية لا تستطيع أن تقارب غايتها بالتدريج إلا بفضل جهود أشخاص ذوي مشاعر رحبة يهتمون بالخير الكلي و لهم القدرة على تصور فكرة حالة فضلى آتية"**[7]. و لعل موقف كانط هنا من الجرأة بمكان، بحيث لا نلمس في الغالب هذا المقدار من النقد الجريئ اتجاه الحكام في مجمل كتاباته، و قد يرجع هذا إلى عزمه منذ البداية على عدم نشر هذه المذكرات إلا بعد وفاته, فنقد ه للسلطة الحاكمة في هذه المذكرات يذهب به إلى حد الربط بين البؤس الاجتماعي و التخلف الأخلاقي الذي تعيشه شعوب بمسؤولية السلطة الحاكمة (الدولة)، يقول كانط متأسفا:**" إننا نعيش عصرا يتميز بالانضباط و الثقافة و الحضارة، و لكننا لا نعيش إلى الآن عصرا يتسم بالتنشئة الأخلاقية. و يمكن القول في حالة الانسان الراهنة إن سعادة الدول تزداد في نفس الوقت الذي يزداد فيه بؤس البشر"**[8] ، و يتضح من خلال قول كانط هذا مدى المسؤولية التي يُحَملها كانط للحكام في تردي الوضع التربوي بعصره، بمن فيهم ملك بورسيا فرديريك غليوم الثاني، الذي سبق و توجه إليه "بالمدح" في مقالته " ما

---

[5] المصدر نفسه، ص 21.
[6] المصدر نفسه، ص 21
[7] المصدر نفسه، ص 21.

anfasse.org

الأنوار" (1784). و هذا يظهر مدى المفارقة التي يمكن أن تحملها آراء الفيلسوف عندما تتعلق بموضوع تحيطه هالة من الرقابة (سياسية، دينية...) تحول دون تمكنه من التعبير بحرية، و تلجم عنان نقده، و النقد هي الرؤية التي استطاع من خلالها كانط استبصار مجموعة من التقاليد المتردية و المخلة بالتربية في عصره، و من ثم بلورة رؤية متميزة لمشروع تربوي أكثر خدمة لغاية الكمال الإنساني.

4- المنطلقات النقدية لمشروع التربية لدى كانط:

يتوجه كانط في مذكراته حول التربية بالنقد إلى الكثير من السلوكات و العادات المخلة بالتربية في عصره سواء المتفشية داخل الأسرة و كذلك في المؤسسات الدينية أو المؤسسات التعليمية، و يرى أن هذه العادات التقليدية التي أضحت منتشرة و مترسخة لدى الجمهور الواسع ،هي بالفعل عائق امام أي تطور لمناهج التربية أو أي إصلاح لنمط عيش الانسانية، و عليه يجب أولا العمل على محاربتها و نقضها في عدة مستويات :

- **نقد التربية اللينة:**

فينتقد كانط أسلوب الليونة و التدليل الذي يعامل به الأطفال من طرف آبائهم في السنوات المبكرة، **" فإرضاء كل نزواتهم، يقول كانط، في حداثة سنهم يفسد شعورهم و أخلاقهم"**[9]، خصوصا عندما يصرخون فتهرع الامهات غليهم لحملهم و مداعبتهم أو الغناء لهم، يرى كانط أن هذا النوع من التعامل مع الأطفال لا يصلح لتربيتهم بل إنه يفسدهم، إذ يتعودون على الرخاء و الليونة و عدم تحمل المسؤولية، فالطفل كلما صرخ و وجد من يستجيب له إلا و تعود على ذلك، و ينصح كانط في هذا الصدد بتجاهله و تركه يصرخ حتى يتصلب وينفس عن نوازعه التدميرية، **"فإن الصياح شيء نافع للأطفال... وبفضله ينمي الطفل بقدر أوفر أعضاءه الداخلية و قنوات جسمه، و من السيء جدا أن يهرع إلى نجدة الطفل ما أن يصيح"**[10] . كما يدعوا كانط إلى إخضاع الطفل لتربية خشنة أو قائمة على خشونة العيش لكون هذا النمط من التربية هو الصالح لتقويم الجسم. لا يعني كانط بهذا منع الطفل في أن

---

[8] المصدر نفسه ص 23.
[9] المصدر نفسه، ص 34
[10] المصدر نفسه، ص 33

anfasse.org

يكون في كامل الرفاهية ولكن ألا نعوده على نمط العيش المدلل و المعاملة اللينة، لأن ذلك ببساطة مضر له و لاستعداداته المستقبلية للتعلم.[11] و إن كان ذلك يتسم بالقسوة فكانط يرى أن ان المرحلة الاولى من التربية – كما سبق أن رأينا – تروم تلقين الطفل الانضباط و هي خطوة سالبة بالطبع إذ ترتكز على المنع و التقويم و الضبط، و تشمل هذه العملية حسب كانط كل مستويات معاملة الطفل في سنواته المبكرة: التغذية، اللعب، الرياضة، التكوين النفسي...

- **نقد الرعاية بالأدوات الصناعية:**

و من السلوكات التربوية التي ينتقدها كانط في عصره كذلك، نجد الاعتماد على الأدوات في رعاية الطفل و تلقينه للمهارات الطبيعية كالكلام و المشي، و ينصح بتجنب الاعتماد على الادوات الاصطناعية في تلقين الطفل مهاراته الطبيعية كالمشي مثلا (تجنب المساكات أو العجلات) لكونها لا تساعد الطفل بقدر ما تترك لديه تأثيرات جانبية سلبية كالتشوهات (كالقماط مثلا) ما يؤثر سلبا على بنيته الجسمية، و يرى **"أن هذه التربية القائمة على استعمال أدوات صناعية إنما هي على وجه التحديد تربية سلبية، في حين يمتلك الطفل أدوات طبيعية، و الادوات الطبيعية هنا هي اليدان اللتان يمدهما الطفل أمامه عندما يسقط، فكلما استخدم الانسان أدوات اصطناعية ازداد تبعية للأدوات"**[12]،

- **نقد الوعظ الديني في التربية:**

وفي ما يخص التربية الأخلاقية ينتقد كانط أسلوب " الوعظ" الذي كان سائدا داخل الأديرة في تلقين المبادئ الاخلاقية أو الإيمان، و يقوم الوعظ على منع الطفل من القيام بالسلوك (الكذب مثلا) باعتباره محرما من طرف الله، و هو ما يدفع الأطفال إلى تصور هذا السلوك مقبولا لو أن الله لم يقم بتحريمه، أو أنه يمكن القيام به أحيانا نظرا لخصوصية السياق (الضرورة مثلا). وفي المقابل يدعوا كانط إلى مقت السلوكات المشينة في ذاتها، و ليس لكونها محرمة بفعل قوة إلهية **"فلا يجوز فعل الشر حتى لو صادف انه الله لم يحرمه"**[13].

- **المناهج التعليمية:**

---

[11] المصدر نفسه ، ص 38.
[12] المصدر نفسه، ص 36.
[13] المصدر نفسه، ص 23.

anfasse.org

في محاولته لصياغة رؤية منهجية للتعليم المدرسي، يبدأ كانط بتوجيه النقد لمجموعة من الانماط السائدة في التدرس داخل المعاهد و المؤسسات التعليمية في عصره، التي كانت تركز على التعليم بطرق آلية كالحفظ و التعليم السريع بغية معرفة أكبر قدر من المعارف وهو ما جعل المناهج التعليمية تقتصر على المعارف السطحية. و كذلك توجه الكثير من الناس عديمي التجربة إلى التدريس و التربية كمهنة، و كذلك فتح بعض المعاهد التربوية المجال للمدرسين بتطبيق مناهج مختلفة بكل حرية، و يرى كانط أن هذه المؤسسات تفتقر لرؤية منهجية مدروسة في مناهج التربية، و في هذا الصدد يقسم كانط التربية إلى:

يحث على أهمية التعليم المدرسي، إذ هو الكفيل بتنمية استعدادات الطفل ليعرف ذاته من جهة و ليتمكن من التكيف مع محيطه و من ثم مساهمته في الرقي الانساني كمواطن لأنه يكتسب حينئذ قيمة عامة و ليس فقط فردية، و على هذا الأساس يكون التعليم المدرسي إحدى لبنات بناء المجتمع الانساني المتكامل الغايات و المنشود من طرف كانط، لذلك يضعه في المقام الاول قبل أي تعليم آخر (ديني أو أخلاقيي...). **" إن التكوين المدرسي، يقول كانط، هو الذي يتوفر في أبكر وقت في المقام الأول (...) أما الثقافة الأخلاقية فتاتي متأخرة أكثر من**

غيرها، على اعتبار انها تعتمد مبادئ لابد للإنسان من يدركها بالذات"[14]. لكن قول كانط لا يعني إهمال كل تربية اخلاقية في السنوات المبكرة لدى الطفل، فإنه لابد من أن يصهر الأبوين على اتباع المبادئ الأخلاقية حتى الرعاية الجسمية للطفل، لانه في غياب ذلك تترسخ العيوب بسهولة بحيث يصبح كل فن تربوي فيما بعد يتصدى لها، بدون جدوى.

و يقترح كانط كبرنامج تعليمي يمكن اتباعه في تمية القدرات المعرفية للطفل أن يبدأ المدرسون بتعريف التلاميذ على الطبيعة و ذلك بواسطة الصور و الأيقونات (صور الحيوانات و النباتات) و أن يجعلوهم يعبرون عنها بطريقتهم بالخطوط و الاشكال و هو ما سيفتحهم على تعلم الرسم و الكتابة ثم القراءة، يركز كذلك كانط على التعليم بالخرائط، ذلك لكون الاطفال يحبونها و هو ما سيجعل لدى الاطفال قابلية تلقي الدروس في الجغرافيا ثم التاريخ، الذي يساهم في تنمية الذاكرة و تقويتها لكن لا ينصح كانط باتباع منهج الحفظ كليا " فلا يجب ان نشغل الذاكرة، يقول كانط إلا بالأشياء التي مصلحة في استبقائها و لها علاقة بالحياة الواقعية"[15]. أما في تعلم اللغات فيقترح كانط تدريب الاطفال اولا على السماع قبل أن يخلصوا إلى قراءة الموسوعات المصورة, حتى يستطعوا الربط بين الصور و المعاني المقصودة. إن كانط يحث على اتباع منهج تعليمي يأخذ بعين الاعتبار قدرات الطفل في كل مرحلة و يراعي في نفس الوقت تنمية القدرات الذهنية و العقلية التي سيتمكن بها الطفل من التعامل مع مختلف الاشكاليات و أن يستوعب مختلف القضايا التي ستطرح أمامه مستقبلا، و هذه مهمة تعليمية لا تنحصر في اللحضة التي يخضع فيها اطفل للتعليم، بالتالي يجب انتهاج طرق ترسخ المعرفة العقلية لدى الطفل. و هو ما يسميه كانط تنمية قدرات الفاهمة العقلية وملكة الحكم بحيث **" يمكن في البداية أن ننمي الفاهمة نوعا ما بالسلب، بان نقترح عليها امثلة تتفق مع القاعدة أو على العكس، باستخراج القاعدة الملائمة للحالات المفردة، وتبين ملكة الحكم أي استعمال ينبغي توخيه بالنسبة إلى الفاهمة. و هذا الاستعمال ضروري لفهم ما يتعلم أو ما يقال أو لعدم تكرار شيء دون فهمه. فما أكثر من يقرأ و يسمع حتى دون أن يفهم ، خلافا لما يعتقد، لذلك فالصور و الأشياء ضرورية."**[16] يرى انه كذلك انه لا يجب

---

[14] المصدر نفسه/ ص 29.
[15] المصدر نفسه، ص 50.
[16] المصدر نفسه، ص 54.

anfasse.org

تلقين الطفل المعارف بشكل مباشر بل يجب العمل على خلق الحاجة لدية لمعرفة الأشياء و من تم أن يتساءل عنها أو حتى أن نعلمه كيف يصل إلى الاجابة وحده و هو ما يسميه كانط بالطريقة السقراطية في تربية العقل .

- **التربية الدينية:**

بغية إرساء قواعد متينة للتربية الدينية، ينطلق كانط أولا من طرح السؤال:" ما هو الدين؟" و يجيب: **" الدين هو القانون الذي يوجد فينا، على اعتبار أنه يستمد سلطته علينا من مشرع و قاض: فهو أخلاق مطبقة على معرفة الله"**[17]، و عليه فإن كانط يقلي التصور اللاهوتي للدين الذي يختزل هذا الأخير في مجرد طقوس و شعائر كنسية غايتها التعبير عن الولاء لقوى مفارقة، إن كانط يعطي للدين مكانة إنسانية وظيفية قبل أن يجعلها لاهوتية، وهذا ما سيمتل أساس نظرته للتربية الدينية، أي على هذه الأخيرة أن تتوجه لخدمة صلاح الإنسان و سعادته، باعتبار ان **:" القانون الالهي يجب أن يتجلى في ذات الوقت كقانون طبيعي لأنه غير اعتباطي ولذلك يفهم الدين من منظور خلقي كامل"**[18] و الدين الذي لا ينبني إلا على اللاهوت لا يمكن أن أن ينطوي عللا جانب أخلاقي يروم صلاح البشرية، و على هذا الاساس ينتقد كانط بشدة طرق التربية الدينية في عصره المنتشرة بالأديرة، و التي تقوم على الحفظ و كذا على الوعظ و المكافاة و التوبيخ، خصوصا عندما يتعلق الامر بتلقين الاطفال الأخلاق و المبادئ، يقول كانط**" إذا عاقبنا الطفل حين يفعل الشر، و كافأناه حين يفعل الخير، عندئذ يفعل الخير ليعامل هو معاملة حسنة، و عندما يدخل فيما بعد معترك الحياة ، حيث لا تجري الأمور البتة على هذا النحو، و حيث يفعل الخير دون أن يكافأ و الشر دون أن يعاقب، فإنه يصبح إنسانا لا يرى إلا كيف يشق طريقه بنجاح و يكون هذا الطريق حسنا وقبيحا حسبما يجد هذا أو ذاك أكثر نفعا"**[19]. لهذا يرى كانط انه يجب الحرص على ان نعلم الاطفال المبادئ لذاتها و ليس لغايات نفعية، يجب ان يدرك الاطفال ان الخير خير في ذاته وان الشر شر في ذاته، و أن احترام هذه المبادئ واجب اخلاقي مطلق في ذاته.على الطفل

---

[17] المصدر نفسه ، ص 75
[18] المصدر نفسه ،ص 76.
[19] المصدر نفسه، ص 59.

أن يتبين عدالة المبادئ الاخلاقية بنفسه، و هو ما يفترض اولا الكثير من الثقافة الاخلاقية والانوار لدى المعلمين و الاولياء أنفسهم.[20]

و يضع كانط التربية الدينية في مقام ثان بعد التربية الأخلاقية و المدرسية، إذ لا يمكن مثلا تلقين الأطفال عبادة الله و هم لا يستطيعون بعد تكوين أي تصور عن هذا االإله، لذلك يرى كانط يجدر بالطفل أولا معرفة ذاته و معرفة الطبيعة ثم معرفة الذت الإلهية بعد كل هذا. يقول كانط : **" يجب أولا أن ينسب كل شيء إلى الطبيعة ، ثم أن تنسب هذه الأخيرة إلى الله، فنبين مثلا في المقام الأول كيف أن كل شيء معد من أجل المحافظة على الأنواع وتوازنها، ولكن في نفس الوقت أيضا و على نحو أبعد من أجل الإنسان بحيث يستطيع بذاته أن يصبح سعيدا"**[21] يمكن تصوير قول كانط هذا كما يلي:

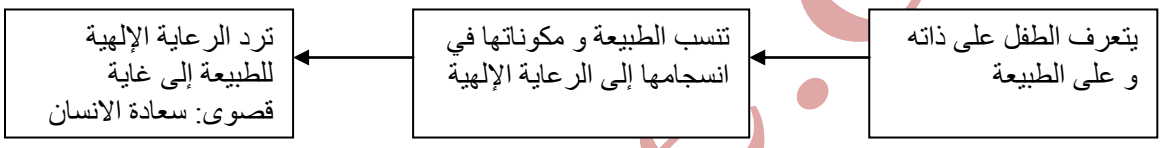

يجب على التربية الدينية أن تستند إلى الخلقية أولا ثم اللاهوتية في وقت لاحق و بشكل عرضي، لأن الغاية من التدين ليست بالمفارقة لخدمة الانسانية، و ما دامت الغاية هو الانسان ذاته،" فيجب أن تكون الخلقية هي الأولى و أن يتبعها اللاهوت، و هذا ما نسميه دينا"[22] حسب كانط يجب أن يكون القانون الماثل فينا (الضمير) هو المحكمة التي يستند إليها الانسان في سلوكاته لا إلى قوى خارجية من خلال التواب و العقاب، على الانسان أن ينضبط للواجب الأخلاقي المطلق، للمبدا الأخلاقي في ذاته لا لشيء آخر. و يقول كانط في هذا المنوال: **" إن الدين من غير الضمير الخلقي لا يعدوا ان يكون مجموعة من الشعائر والطقوس تتسم بالتطير، و لذلك يعتقد البعض انه يعبد الله (...) حتى دون معرفة قدرة الله و حكمته و النظر فيها، فالمزامير عند بعض الناس هي أفيون للضمير ووسادة يتوسل بها للنوم في هدوء".**[23]

---

[20] المصدر نفسه ص، 58.
[21] المصدر نفسه، ص 75.
[22] المصدر نفسه،ص 76.
[23] المصدر نفسه،ص 77.

anfasse.org

يدعوا كانط أخيرا في حديثه عن التربية الدينية إلى حرص الابوين على أن لا يعتبر الأطفال البشر بحسب ممارستهم الدينية، لأنه رغم تنوع الأديان توجد وحدة بينها في كل الأصقاع. لدى نعتبر كانط بحسب هذا القول من المشيدين بفكر التسامح و بتعدد الأديان، إلى درجة أنه يجعل "التسامح الديني" من أسس التربية التي يجب إتخادها بعين الاعتبار في تنشئة الأطفال.

- **التربية الجنسية:**

لم يخصص كانط مجالا واسعا لمناقشة مسألة الجنس في التربية، بل إنه اكتفى بتسطير بعض الإشارات، و قد يرجع ذلك إلى خصوصية المرحلة التي كان كانط يلقي فيها هذه المحاضرات حول التربية، و التي يصعب فيها مناقشة موضوع الجنس كطابو داخل الجامعة. فنجده منذ بداية المحاضرات يلقي لمحة إلى أهمية موضوع الجنس في تربية المراهق فيعد بأنه سيعود إلى هذا الموضوع، ليرجأه إلى أن يأتي على نهاية المحاضرات ليأتي على شكل خاتمة للحديث، ولذلك دلالة كبير على مدى حساسية موضوع الجنس في المجتمع الألماني في القرن18. فكانط يرى أنه من المهم أن نتوخى الحذر في تربية الطفل الجنسية خصوصا **" عندما تزداد السن و يبدأ الميل إلى الجنس في الايستيقاظ، آنداك تأتي الفترة الحرجة التي تكون فيها كرامة الانسان قادرة و حدها على إلزام الشاب بحدود معينة . و مع ذلك، لابد في وقت مبكر من إعطاء توجيهات إلى الشاب حتى يستطيع أن يحذر من هذا الأمر أو ذاك"**[24] ، في فترة المراهقة يبدأ الطفل بالتمييز بين الجنسين و كما يقول كانط فإن الطبيعة ترفع له ستار السرية على الاختلاف الطبيعي بين الجنسين ، و من تم يبدأ في طرح التساؤلات حو طبيعة هذا الاختلاف، و هو ما يجب أن يتلقاه الأبوين بتلقائية، و أن يجيبانه عن مجمل أسئلته و بوضوح، لأن كتمان الموضوع لا يزيد الأمر إلا حدة في هذه الفترة. يقول كانط:**" إن نمو هذه النوازع آلي لدى المراهق، و كل شيء يجري كما هو الحال في الغرائز التي تنمو حتى دون معرفة موضوعها، فمن المستحيل إذن إبقاء المراهق في الجهل و ما يقترن به من براءة، و عندما نصمت لا نفعل سوى أننا نجعل الداء**

[24] المصدر نفسه،ص 70.

anfasse.org

يستفحل"[25]. وفي نفس الوقت يجب أن نحدر المراهق من بعض الممارسات الجنسية المضرة به كالعادة السرية (يسميها كانط بالمتعة الموجهة إلى الذات) المناقضة لطبيعة الانسان، وينبغي كذلك ان نصورها له برغم الاشمئزاز الذي تثيره هذه الممارسة و ان نبين له أنه " لاشيء يضر ذهن الانسان و جسمه أكثر من شكل المتعة الموجهة إلى الذات"[26]، و أنها مضرة للتناسل و للنوع و تهدد كل قواه الجسمية بالانهيار، و تسرع من الشيخوخة...هذا فيما يتعلق بالآثار الجسمية لهذه الممارسة، و لكن كانط يرى أن الآثار السلبية على المستوى الخلقي أسوأ بكثير، إذ يتجاوز الطفل حدود الطبيعة في الجنس (أي الممارسة بين ذكر وأنثى) فلا يفتأ الميل يثور لأن الطفل آنذاك (في حالة الإدمان) لا يجد أي إشباع فعلي للرغبة الجنسية في شكلها الطبيعي. يقول كانط **:" الافضل، بل من واجب المراهق أن ينتظر حتى يكون قادرا على الزواج بتعقل. عندئذ لن يتصرف كإنسان صالح فحسب، بل أيضا كمواطن صالح"**[27].

- **في العقوبة:**

يعرف كانط العقوبة على انها جزاء على عدم الانضباط أو انعدام للطاعة من طرف الطفل، و يرى ان كل مخالفة من هذا القبيل تستوجب العقاب، و هو نوعان، معنوي و مادي، ويتحددان حسب الشكل الآتي:

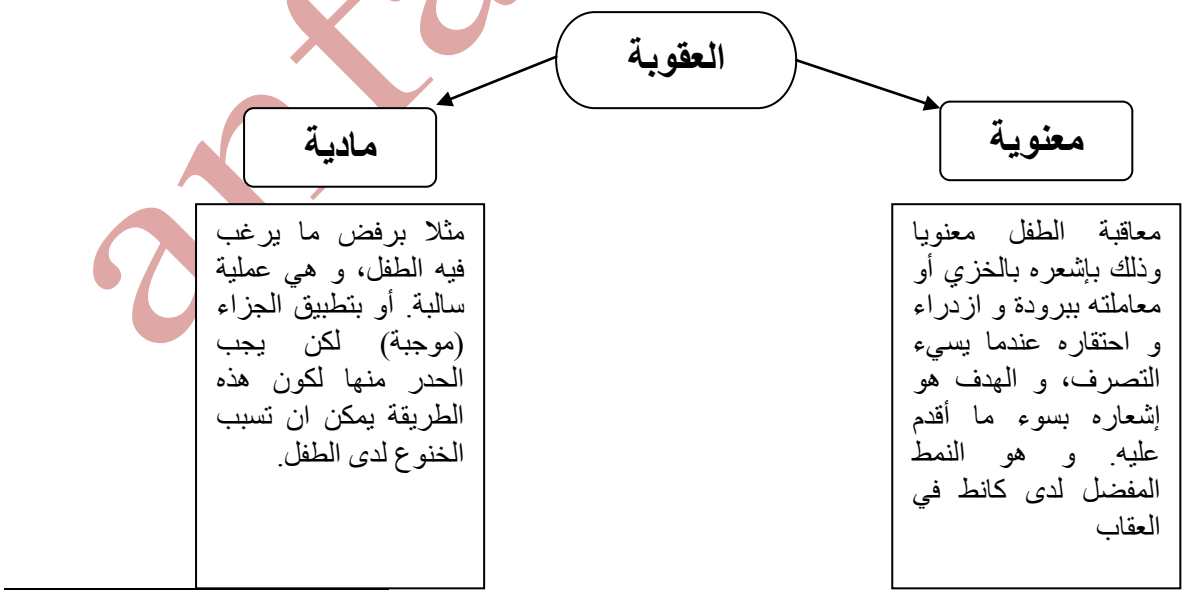

[25] المصدر نفسه، ص 78.
[26] المصدر نفسه،ص 79.
[27] المصدر نفسه، ص 80.

anfasse.org

يشير كانط إلى انه لا يجب مصاحبة العقوبة بملامح الغضب، لأن الاطفال عندها ينظرون إليها على أنها فقط ناجمة عن إنفعال شخصي، أو أنهم مستهدفون و حاقد عليهم. كما أن العقوبة لا يجب أن تكون اتجاه الاطفال بشكل متواتر ، لأنه عندها تصبح مألوفة فتولد لديهم طباعا عنيدة.[28] كما أنه لا ينبغي قبل كل شيء الاحتفاظ بأدنى حقد على الأطفال.

يرى كانط انه ليس من اللائق توجيه التوبيخ للطفل في سن مبكرة بالقول: " أوف لك، استحيي ، هذا غير لائق" ذلك لكونهم لا يدركون بعد ما معنى الاستحياء، و بالتالي فهذا القول" استحيي" لا يولد لديهم إلا الخجل و الانطوائية و الحرج أمام الغير، و يجعله لا يتجرِون على طرح إشكالاتهم و رغباتهم فيما بعد و يقترح كانط كشكل من أشكال العقوبة المفيدة في تربية الاطفال: معاملتهم بازدراء و احتقار عندما يقومون بسلوك مشين، فمثلا عندما يستهزؤ طفل ما بطفل فقير حول مظهره او لباسه يقترح كانط أن نعامل هذا آنداك باحتقار، حتى يدرك ان السلوك الذي اقدم عليه مشين و لا يليق باناس محترمين، أو ان ننزع عنهم التقدير عندما يكذبون فنخبرهم بأننا لن نصدقهم مرة أخرى، لكونهم كذبو.

• استنتاجات عامة:

يبدوا جليا أننا حاولنا ان نستفيظ في الفصل الاخير و المعنون "بالاسس النقدية للتربية لدى كانط" أكثر من اي فصل آخر، و ذلك مرده أننا اعتبرنا منذ البداية نص "تأملات في التربية" نصا نقديا بامتياز ينضاف إلى المشروع النقدي الذي أرساه كانط في أعماله الثلاث (نقد العقل الخالص، نقد العقل العملي، نقد ملكة الحكم) و لعلنا لمسنا بجلاء مضمون هذه الأعمال النقدية بهذا النصا و إن كان كانط في مرحلة إلقائه لهذه المحاضرات (1776-1787) لم يكتب ينجز بعد هذه الأعمال. و كما سبق أن أشرنا في المقدمة: البعد العملي التجريبي لدى كانط الذي استمده من مزاولته لمهنة التربية لمدة 9 سنوات أمده برؤية نقدية ثاقبة و جعله يقف على مختلف جوانب التربية (الجسمية، العقلية، الدينية، الأخلاقية، الجنسية...) و قد استطاع كانط أن يبلور بالفعل رؤية متقدمة عن معاصريه المهتمين بالتربية.

anfasse.org

إن التربية لدى كانط ليست بالآلية كما هو الحال بالنسبة لأنماط التربوية السائدة في عصره و لا بالبراغماتية التي تسعى إلى تكوين أناس يخدمون مصالح الدولة ، بل إنها تربية قائمة على أساس مبدئي أخلاقي يروم صلاح الجنس البشري، ليس فقط على المستوى القطري، بل غايتة صلاح الإنسانسة كونيا ،و هو ما يجعل التربية بحق لدى كانط إحدى النوافذ التي تفتحنا على "مشروع لسلام الدائم" و كذا مشروع الأنوار، و هو ما أعلنه كانط منذ البداية قائلا: **" إن الأنوارتتوقف على التربية، كما أن التربية تتوقف بدورها على الأنوار"**[29].

---

[28] المصدر نفسه، ص 61.
[29] المصدر نفسه، ص 17.

anfasse.org